كان غيرهم ممن نستضيء الآن بنبراس آدابهم ومعارفهم في حالة الهمجيَّة . وانت عالم ان هؤلاء ايضًا لم يرتقوا اخيرًا الاَّ بعد ان هبُّوا من غفلة الجهل وتجافوا عن مضاجع الخمول مقتدين باولئك الفضلاء الذين لم يبقَ لنا القعود عن احتذاء مثالهم بنوى رؤية آثارهم والاستدلال بها عليهم على حد قول الشاعر

ان آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

الاَّ ان الاقتصار على الفخر بهاتيك الآثار مضرٌّ لانهُ يولِّد حُبَّ الفخفخة التي تعبث بالصفات الادبية وتفضي بصاحبها الى الفقر . وهذا شأن اكثرنا مذ فقدنا بضاعة الجدود واقتصرنا على تذكار الفخر حتَّى صار الادعاء فينا شيئًا فطريًّا . وخلاصة القول ان الاقتصار على تذكار الفخار من شرّ الامور وان الفخر الحقيقي هو الذي ينشأ عن السعي والعمل

تسهيل الطباعة

لو وضعت مخترعات الانسان في جدول ورُتِّبت فيهِ بحسب نفعها ولزومها للعمران لكانت الكتابة في صدر الجدول حتَّى لقد ظنَّ البعض انها إلهامٌ الهي لا اختراعٌ انساني . والحقيقة ان الناس توصَّلوا اليها تدريجًا شأنهم في جميع المخترعات العظيمة وتقدَّموا فيها تقدمًا بطيئًا وكان يخلِّل تقدمهم فترات يقنعون فيها او يتقهقرون كما هو شأنهم في كل الاعمال الى ان استنبطوا الطباعة فكان من نتائجها ما نشاهدهُ في عصرنا من رخص الكتب والجرائد وكثرة انتشارها . فالمقطم الذي ننشرهُ يوميًّا لا يستطيع اثنان كتابة نسخة كاملة منهُ في يومها فما قولك في الفين او ثلاثة آلاف نسخة تطبع منهُ في بضع ساعات من غير ان يقع فيها خطأ او تحريف بل ما قولك في جريدة مثل جريدة التيمس يُطبَع منها في اليوم سبعون او ثمانون الف نسخة وفي كل نسخة عشرون صفحةً او اكثر من الصفحات الكبيرة الدقيقة الحروف

وقد تقدَّمت الطباعة من حين استنبطها غوتنبرج او كوستر الى الآن وكان اكثر تقدمها محصورًا في اتقان آلات الطباعة نفسها وسبك الحروف وبقي فيها فرع لم يتقدَّم قط وهو جمع الحروف وترتيبها بعضها مع بعض حتَّى تتركَّب منها الكلمات والسطور والفصول . فاذا دخلتَ مطبعةً تجد فيها جامع الحروف قائمًا امام صندوق كبير فيهِ بيوت صغيرة لكل الحروف والارقام فيجمعها حرفًا حرفًا بصبر وتأنٍّ ويضعها في مصف من الحديد او النحاس حتَّى اذا بلغ آخر السطر شدَّهُ بفروق من الرصاص ادخلها بين كلماتهِ وعاد يجمع سطرًا

ثانيًا وثالثًا وهلمَّ جرًّا الى ان يتلئ المصف فينقل السطور الى المحط ويوالي الجمع في المصف والنقل الى المحط الى ان يجتمع عندهُ صفحة من الكتاب او عمود من الجريدة فيضمهُ الى غيرهِ من الصفحات او الاعمدة ويصححها ويركبها على المطبعة لتطبع عنها الكتب او الجرائد ثم تغسل وتفرق حروفها حرفًا حرفًا في بيوتها وهلمَّ جرًّا

وجمع الحروف متعبٌ ممل لا يمهر فيهِ الانسان الاَّ بعد ان يزاوله سنتين من الزمان . واذا كانت الحروف عربيَّة فلا بدَّ من ان يكون صندوقها كبيرًا طولهُ متران او اكثر وعرضهُ متر او اكثر وفيهِ مئات من الابيات الصغيرة لان شكل الحرف الواحد يتغيَّر على صور شتى بحسب موقعهِ من الكلمة فالباء مثلاً لها صورة وهي مفردة وصورة في اول الكلمة واخرى في وسطها واخرى في آخرها ولها صور مختلفة قبل الميم والجيم والراء وقس على ذلك بقيَّة الحروف كما يظهر باقل امعان في حروف هذه الصفحة

والحروف المستعملة في اللغات الاوربية قليلة العدد ولذلك تكون صناديقها صغيرة بالنسبة الى صناديق الحروف العربية وبيوتها قليلة ومع ذلك لا يخلو جمعها وتفريقها من المشقة العظيمة

الاَّ ان رجال الاختراع قد اعملوا فكرتهم منذ عهد غير بعيد لايجاد طريقة تسهل جمع الحروف وتفريقها فاخترع بعضهم آلات تسبك الحروف سبكًا واخترع آخرون آلات تجمعها جمعًا ثم تفرقها كما جمعتها وقد شاعت آلات السبك الآن في اميركا واستعملها كثير من جرائدها الشهيرة كجريدة العالم والشمس والهرلد والتيمس والميل والذين استعملوها يقولون انهم قد اقتصدوا باستعمالها نصف اجرة جمع الحروف فضلاً عن ان العمل بها لا يقتضي من التمرين والمزاولة عشر ما يقتضيهِ جمع الحروف عادةً . وقد اطلعنا على وصف آلة من هذه الآلات في احدى الجرائد العلمية الاميركية نقتطفنا منهُ ما يأتي .

قال الكاتب ان الناظر الى هذه الآلة يرى امامهُ مفاتيح كمفاتيح البيانو عليها الحروف الهجائية فاذا اراد ان يجمع كلمة كتاب مثلاً ضغط المفتاح الذي عليهِ حرف الكاف فيقع من بيوت الامات امُّ حرف الكاف اي قطعة من النحاس فيها ثقب لوصبِّ الرصاص فيهِ لخرج مثل حرف الكاف الذي يستعمل في الطباعة . ثم يضغط مفتاح التاء والالف والباء على التوالي فتقع امات هذه الحروف وتجتمع معًا فيضغط مفاتيح غيرها من الحروف الى ان يتم السطر . وبتأتأ بين الكلمات اسافين دقيقة فاذا تمَّ السطر ارتفعت هذه الاسافين مقدار ما يشدُّ السطر بها وحينئذٍ ينصبُّ على السطر رصاص ذائب من الآلة نفسها فان في جوفها

نارًا ورصاصًا ذائبًا لهذه الغاية . ويُدفع هذا السطر الى مكان تجتمع فيه السطور واحدا بعد الآخر الى ان تجتمع من ذلك صفحة كاملة او عمود كامل

اما الامّات التي صُبّ عليها الرصاص فتعود واحدةً واحدةً الى بيوتها الخاصة بها حالما يتم صب الرصاص عليها ولذلك لا يكون في البيت الواحد الاّ عدد قليل منها

وآلات السبك المستعملة الآن نوعان نوع ثقل الآلة منهُ طن وطولها نحو ست اقدام في مثلها عرضًا وعلوها سبع اقدام وثمنها ستمئة جنيه والعامل الواحد يجمع بها في يومهِ قدر ما يجمع اربعة من مهرة جامعي الحروف والنوع الثاني ثقل الآلة منهُ اربع مئة وخمسون ليبرة وطولها اربع اقدام وعرضها اربع وعلوها اربع ونصف وثمنها خمس مئة جنيه . وهي تسرع بقدر ما يمكن للانسان ان يحرّك يديهِ . وقد امتحنت في العام الماضي في مطبعة جريدة العالم فاشتغلت مئة وتسع عشرة ساعة متوالية بدون انقطاع ولم يحدث فيها شيءٌ من الخلل

هذا من قبيل الآلة التي تسبك الحروف سطورًا اما الآلة التي تجمع الحروف وتفرّقها فيكون فيها بيوت للحروف في كل بيت منها مقدار كبير منها ولها مفاتيح مثل الآلة المتقدمة فيضغط العامل مفتاحًا منها فيندفع حرف من الحروف التي يدل ذلك المفتاح عليها الى المصف ثم يتلوهُ الحرف الثاني والثالث الى آخر السطر والصفحة ولا بدّ من ان يكون هناك عامل آخر يصحح الحروف وينقلها الى المطبعة ثم يفرقها في اماكنها بعد تمة الطبع

وقد ذكرنا غير مرة ان احد السوريين نزلاء بلاد الانكليز استنبط آلة لجمع الحروف وتفريقها وقد اطلعنا على صورة هذه الآلة وعلى كتابات عنها في بعض الجرائد الانكليزيّة . وعلمنا ان المخترع عازم ان يجعلها صالحة لجمع الحروف العربية وتفريقها . والمرجح عندنا انهُ سيصادف في ذلك مصاعب جمّة تحول دون المراد لكثرة الحروف العربية فلو اتفق المتكلمون بالعربيّة على ابدال حروفهم بحروف رومانية لزالت كل صعوبة من هذا القبيل ولا سيما اذا استعملوا الحروف العادية فقط من غير ان يستنبطوا حروفًا جديدة لما لا وجود لهُ في اللغات الاوربية كالعين والحاء والخاء

الاّ ان هذه الآلات ثمينة يكفي المطبعة آلتان او ثلاث منها فاذا وقع فيها خلل قليل — وذلك غير نادر لكثرة اجزائها — ووقفت عن العمل اضرّ ذلك بالمطبعة ضررًا كبيرًا ولذلك فالارجح انها لا تُشيع كثيرًا الاّ في المطابع الكبيرة التي يمكنها ان تستعمل عشر آلات او اكثر منها حتّى اذا وقفت واحدة او اثنتان بقي عمل المطبعة جاريًا مجراهُ . وستزيد الكتب الاوربية رخصًا بواسطة هذه الآلات اما كتبنا العربية فتبقى على حالها لان الذين

وضعوا حروف الطباعة جملوها مماثلة للكتابة واكثروا اشكالها الى حد يتعذر معهُ استنباط الآلات لتسهيل جمعها وتنريتها

الاغتراب والمهاجرة

لا يمنعنَّكَ خفض العيش في دعةٍ ... من ان تبدِّل اوطانًا باوطانِ
تلقى بكل بلاد ان حللتَ بها ... اهلاً باهل واخوانًا باخوانِ

قال المقدسي "السفر احد اسباب المعاش التي بها قوامهُ ونظامهُ لان الله تعالى لم يجمع عجائب الدنيا في ارض بل فرّقها واحوج بعضها الى بعض ومن فضلهِ ان صاحبها يرى من منافع الامصار وبدائع الاقطار ومحاسن الآثار ما يزيدهُ علمًا ويفيدهُ فهمًا بقدرة الله وحكمتهِ ويدعوهُ الى شكر نعمتهِ . وهو يسمع العجائب ويكسب التجارب ويفتح المذاهب ويطرد الاسقام ويشهي الطعام ويحطُّ سورة الكِبْر ويبعث على طلب الذِكْر"

وقال بعضهم

اني رأيتُ وقوف الماء يفسدهُ ... فان جرى طاب او لم يجرِ لم يطبِ
والاسد لولا فراق الغاب ما قنصت ... والسهم لولا فراق القوس لم يصبِ
والدر كالترب ملقى في اماكنهِ ... والعودُ في ارضهِ نوعٌ من الحطبِ

واذا طالعتَ كتب الادب رأيتَ فيها اقوالاً كثيرة من هذا القبيل تحبِّب اليك الاغتراب والمهاجرة مبنيةً على المسلَّمات والاقيسة الخطابيَّة ورأيت ايضًا اقوالاً اخرى مناقضةً لها تذمُّ الغربة والارتحال . على ان الناقد البصير يرى المهاجرة سنَّة طبيعية وناموسًا جاريًا على كل حيوان ونبات وهو لازم لنوع الانسان لزوم الماء والهواء ويمكن التصرُّف بهذا الناموس على صور شتى ولكن لا يمكن اعدامهُ من الكون

وحبُّ الوطن غريزي في الانسان فيحنُّ اليهِ ويحسب ماءهُ اطيب المياه وهواءهُ انقى الاهوية وترابهُ اجود الاتربة ويفضل بلادهُ التي ولد فيها وربي على كل بلاد وهذا الحب طبيعي في الانسان كقوة الجذب الى نحو المركز في الجماد فاذا انقاد الانسان اليهِ فقط ازدحمت القرى والمدن وتراكم اعضاء العيال بعضهم فوق بعض ولم يتفرَّقوا على وجه البسيطة فازدحمت بهم الموارد وضاقت ابواب الرزق وبقي الجانب الاكبر من الارض بورًا غير معمور ولا مأهول وانتشرت الامراض بين الناس وانقرضوا عن وجه البسيطة في وقت قصير . وقد